«مناقشة رأي في علامة التأنيث»

رأي في التعليل القاصر ومفرد «شبه الجمع» وتأنيث المؤنث السالم

محمد الحساييني ــ الرباط
صحفي بجريدة «الميثاق الوطني»

نشرت مجلة «اللسان العربي» المجلد الثامن عشر الجزء الأول – مشكورة – (مناقشة رَأي في علامة التأنيث) بقلم الأستاذ محمد شيت صالح الحياوي من بغداد ، ردّاً على ما كتبه في (المورد) – المجلد التاسع – العدد الأول ، الدكتور ابراهيم السامرائي من كلية آداب جامعة بغداد ، تحت عنوان (ديوان الأدب لأسحاق ابن ابراهيم الفارابي) أحاول أن لا يدور ردي حول ثنائية الخطإ والصواب ، لأن مجال النحو واسع ؛ وإن كان الجزء الأكبر منه ، لا يزال غير مدروس دراسة علمية دقيقة ، إما لغموض مباحثه ، وإما لكون مسائله يكتنفها نوع من «التعليلات القاصرة» للأمور الوضعية في مادته . على أنه لا غنَى عن ابداء ملاحظات منهجية في «علامة التأنيث» وصيغة جمع المؤنث السالم .

• التعليل القاصر

لمناقشة تخريجات الاستاذين : د. السامرائي ، والحياوي يجدر بنا أن لا ننسَى أن هناك دائما تهمة لصيقة بالنحاة من حيث انكبابهم على التعليلات القاصرة . وقد رماهم بعض الشعراء بضعف الحجة قائلا :

تـرنـو إلي بـطـرف فاتـن فاتـر
أضـــعـف من حـــجّـــة نحـوي

• يورد الدكتور ابراهيم السامرائي تعليلاً لأمر وضعي ؛ وهو ، مزلق ، طالما وقع فيه النحاة . يقول في النقطة الخامسة من اجتهاداته : «حينما رسم الفتح ، استغنَى عن الهاء وتطورت الفتحة واستطالت ، فصارت ألفا مقصورة كما في ليلَى وسلمَى ثم ألفا ممدودة كما في صحراء وحسناء» . فما هي حجة د. ابراهيم السامرائي حول مراحل هذا التطور قياساً وسماعاً ؟ .

وبالنسبة للأستاذ محمد شيت صالح ؛ وهو يرد على د. إبراهيم السامرائي في خمس ملاحظات ... نأخذ أولاها للإشارة إلى «التعليل القاصر» ، يقول الحياوي :

«أولاً : سمى ــ يريد د. السامرائي ــ التاء المربوطة هاء . وفاته أن الأصل هو الدرج ، لا الوقف ، كما أن من العرب من يقف عليها ويلفظها تاء ، فهي تاء أقوَى من هاء ، والتسمية للأقوَى . وشتان ما بين المخرجين ؛ فالهاء حلقية ، والتاء نطقية» .

• وجه القصور في تعليل الحياوي الوضعي هو قوله : «...فهي تاء أقوَى من هاء والتسمية للأقوَى» على وزن «البقاء للأقوَى» . فما هي حجته على ذلك ؟ وهل استند إلى «أصل الأنواع» في الحروف الصوتية ؟

• ملاحظات على الرد والرأي في علامة التأنيث

أعرض بقية ملاحظات محمد شيت صالح الحياوي على الدكتور ابراهيم السامرائي ، مع الردود والتعقيبات التي تثيرها ملاحظاته :

«ثانيا : لا يشترط أن يكون ما قبل التاء المربوطة حرفاً مفتوحاً ، فقد يكون ألفا ، والألف لا يكون إلا ساكنا مثل فتاة وقضاة» .

* بما أن اللغويين قد فصلوا فيما يفتح قبل هاء أو تاء التأنيث ؛ وبما أن النحاة هم كذلك قد فصلوا في الابدال والاعلال واوضاع الهاء أو التاء ، علامة تأنيث كانت أو هاء عوَضٍ ؛ فليس ثمة ما يبرر قبول اجتهاد الاستاذ الحياوي . وعلى ذلك ، فهاء التأنيث أو التاء المربوطة ، لا تأتي إلا بعد حرف مفتوح — أو بعبارة أدق — تسبقها فتحة على الحرف الذي قبلها مباشرة . وهو ما يقوم كمسلمة بنى عليها الدكتور ابراهيم السامرائي مستمداً إياها من القواعد الشائعة في العربية .

* إن تخريج د. السامرائي الرابع ، جدير بالمناقشة ، إن لم يكن أولى به ، إدخاله ضمن الملاحظات اللغوية المتعلقة بـ(الصوت) . أما ملاءمته للواقع الصوتي في اللغة ؛ فيرجع إلى إمالة المؤنث المنتهي بهاء التأنيث ، والإمالة أقرب إلى الهاء ، وهذه الأخيرة أقرب إلى صوت الفتحة .

والذي يجرؤ على اعتبار (ة) فتاة وقعت بعد حرف ساكن قبلها ، قد يحاجّنا في المرة القادمة أن تاءات المصادر الآتية هي تاءات مبسوطة وقد انفتح ما قبلها ومع ذلك ، لا تدل على الإناث ولا تكتب مربوطة على شكل هاء ينطق به في درج الكلام وهذه المصادر هي :

— رت يرتُّ رَتّاً إذا كان في لسانه رُتَّة وهي العجمة .

— حَتَّتْ . بمعنى صدد

— ألْتَتَ وهو الغلظ في الكلام .

أو في اسم المفعول من الجملة الآتية :

— زيتٌ مُقتَّتٌ ... الخ...

...ولو جرؤ على ذلك ، لأجيب بأن التاءات هنا أصلية من مادة الكلمة وليست علامة طارئة أو عارضة .

ثم يقول الحياوي :

«ثانيا : لا يشترط أن يكون ما قبل التاء المربوطة حرفاً مفتوحا ، قد يكون ألفا . والألف لا يكون إلا ساكنا مثل فتاة وقضاة» .

* لعلَّ الاستاذ الحياوي فاته أن :

— الألف في فتاة ، ليست أصلية ، بل هي مبدلة إما من (واو) أو (ياء) ويرجعونها إلى : (فَتَوٌ) أو (فَتَيٌ) فصار صرف العلة ألفا لتطرفه ، فأصبح فتيٌ والمؤنث فتاة بدليل أن جمع (فتاة) هو : فَتيات أو فتوَات وليس فتاات ! ! .

— قضاة : الألف أصلها ياء قياساً على جمع اسم الفاعل من الناقص فوزن قضاة فُعَلَةٌ (بضم الفاء وفتح العين ثم اللام) إذن أصله : قُضَيَة (على وزن فعلة) بضم الفاء وفتح العين واللام .

ومن مجازات الحياوي ، ولا أقول المجازفات :

«... وإني — بتواضع — أجازف ولا أسمي التاء المربوطة هاء كما سماها — يريد الدكتور السامرائي — فحسب ، بل لا أعتبرها علامة تأنيث ! (...) فبعد أن فحصت مواضعها ، وحللت أغراضها ، تبين لي أنها تعطي معنى واحداً يشترك فيه جميع الأمثلة المختومة بها . وهذا المعنَى المشترك ، هو ما نسميه (الوحدة)» .

* استنتاج لطيف ! فكأن الحياوي هو الذي استقرَى أحوال الهاء أو التاء المربوطة في العربية لأول مرة !

ثم إن مجازفته في حاجة إلى احتراز ، إذ خلط بين الجزئي والعام والكلي ، بين «شبه الجمع» ومفرده الذي يفرَّق عنه بواسطة هاء التأنيث التي (قد) تؤدي إلى جانب التأنيث وظيفة التفريق بين «شبه الجمع» ومفرده . وبالتالي يخلط الحياوي بين المحسوس والمجرد ، بين الاسم من الفعل ، والمصدر الوارد مختوما بالتاء ، بين المذكر والمؤنث ، بين المؤنث و«المؤنث» !

يوضح الأستاذ الحياوي مفهوم (الوحدة) بقوله :

«ومعنَى الوحدة ، هو الذي يجعلنا نعامل الكلمة معاملة المؤنث سواء أكان مجازيا أم حقيقيا أم مذكراً أو جمعاً كما سنرَى والوحدة جزئية أو نسخة أو مجموعة قد تمثل عدداً رقمه واحد كما قد تمثل عدداً يزيد على اثنين» .

ومع أن هذا التوضيح فيه بعض الغموض لأن الكاتب عممه على كل اسم (وحدة) أو صفة وعلى كل

مصدر منتهٍ بالهاء أو تاء التأنيث ، فقد كلف نفسه بما فصل فيه علماء الصرف واللغة . فهل يعتبر ذلك ، استقراء علمياً ؟

يقول الحياوي «مستقريا :

«شربة : بفتح الشين وحدة من الشرب»

«تمرة : وحدة من ثمر التمر»

«صخرة : وحدة من جماد الصخر»

«بطة : وحدة من الطير المسمى بطّا»

«طلحة : وحدة من شجر الطلح»

«فأرة : وحدة من الفئران . أما الفار ، فليس بوحدة من الفئران (!) . وهكذا جاء تأنيث فأرة من الوحدة لا من الفأر الذي بدوره جاء تذكيره من الجمع أيضا !»

«حليمة : وحدة من الحلم متصفة به . أما حليم ، فليس بوحدة ، بل فرداً من الحلم متصفا به»

«رحالة : وحدة من الرحل متصفة به قوية»

«قضاة : وحدة (مجموعة) من معنَى القضاء (!)

«عباقرة ، عبادلة ، مغاربة وحدة (مجموعة) من العبقرية (!) وعبد الله ، وأهل المغرب على التوالي»

«حجرة : وحدة من معنَى الحجر بفتح وسكون»

«تذكرة : وحدة من معنَى التذكير»

«خبرة : وحدة من معنَى الخبر»

«نسخة : وحدة من معنَى النسخ»

«هبة : وحدة من معنَى الوهب»

«استقامة : وحدة من المعنَى المستفاد من استقام يستقيم ، فإذا أردناها لمرة واحدة أي ليس وحدة أو نسخة مكررة قلنا : استقامة واحدة» .

«لغة : وحدة من معنَى اللغو . الخ التاءات المربوطات» .

* ابتعد بنا الكاتب عن (علامة التأنيث) إلى الاشتقاق والصرف . ومع ذلك ، فجل تلك (الوحدات) تعطينا معنَى التأنيث مباشرة باستثناء قضاة وعباقرة الخ ...

* يكاد الكاتب يحول اللغة والنحو إلى نظام عشري .

* فيما يخص تذكير الفأر وتأنيثه وكذا الحليم ، لم يوضح الكاتب متَى يجب اعتبار ما لحقت به التاء مؤنثاً أو ما يسميه (وحدة) ومتَى يكون المجرد من علامة التأنيث مجرد فرد هل إذا لحقت بأوله (أل) التي تكون للاستغراق أو للجنس ، وبالرغم من ذلك ، نراه يقول «أما حليم ، فليس بوحدة» ولم يدخل عليها (أل) أو (أي) .

ثم يستنتج الكاتب ما يلي :

«ا) لو كانت الكلمة المختومة بالتاء المربوطة مؤنثة وكانت التاء علامة التأنيث لجاز حذف التاء وتحولت الكلمة إلى مذكر . وهذا لم يحصل إلا مصادفة في فأرة — فأر ، فتاة — فتاة (ولا أدري لماذا لم يذكر الكاتب : ابنة — ابن وعالم وعالمة وقاضية وقاضٍ ومعلمة ومعلم الخ ...) .

* فالتاء لم تحدث مصادفة (بطريقة نادرة) بل بطريقة اطرادية .

«ب) لو كانت مؤنثة لما نقل معناها إلى مذكر مثل طلحة وحمزة ومعاوية» .

* هنا خلط بين التأنيث الحقيقي واسماء الأعلام المذكرة التي جاءت على صيغة المؤنث ، وقد فصل في ذلك النحاة .

* أتفق مع الكاتب أن التأنيث يفهم بالصيغة لكن أضيف وبالعلامة أو بدونها مثل سوق وضبع ، وحرب وسلم الخ ...

* وتظهر الملاحظة السادسة خلطاً بين المعنَى لذاته والاسم لذاته بدل دراسة أحوال اللفظ (الصوت) .

ويرَى الكاتب أن «التاء المبسوطة الزائدة التي تأتي مع الفعل أو الاسم هي علامة تأنيث كما في ذَهَبَتْ ، ووجدت ، والتلميذة تذهب وترجع ، وكما في التلميذات مهذبات ، حيث التاء تدل على التأنيث ، والألف يدل على الجمع ، ولا يمكن فصلها ، ولابد أن يأتيا مجتمعين» .

1 — أتَى الكاتب بعلامة تأنيث الأفعال التي أسندت إلى المفرد . ولم ينص على علامة تأنيث الأسماء المفردة عنادا ليس إلا ...

2 ــ فصل النحاة فيما يلي :

ــ تاء التأنيث الساكنة للتفريق بينها وبين التاء المتحركة

ــ التاء التي يبتدئ بها المضارع ، فأدخلوها ضمن حروف المضارعة وهي الخاصّة الغالبة عليها .

ــ التاء المبنية على الكسر في الماضي من التاء المتحركة غلّبوا عليها التحرك والضمير الرفعي والفاعلية (ولن نشير إلى بقية الضمائر كنون النسوة وبعض الضمائر المنفصلة المتعلقة بالتأنيث لأنها ليست علامات على عكس ما ذهب إليه الحياوي في تاء الأفعال) .

ويختم الأستاذ محمد شيت صالح الحياوي رده على الدكتور ابراهيم السامرائي بما يلي :

«1 ــ التاء المربوطة لا الهاء ، تأتي لأغراض مختلفة وتتفق معانيها جميعاً في معنًى واحد مشترك هو (الوحدة) ، فهي علامة على الوحدة أصلا ، لا على التأنيث» .

«2 ــ الألف المقصورة ، والألف الممدودة ، إذا وجدت إحداها في كلمة ، وكانت تلك الكلمة مؤنثة ، كان التأنيث بالصيغة والوضع ، وليس بوجود الألف» .

«3 ــ علامة التأنيث هي التاء المبسوطة الزائدة مع الفعل أو الاسم» .

«4 ــ قد تكون الكسرة علامة تأنيث» .

* ففيما يخص الملاحظة (3) نحّى الكاتب الهاء أو التاء المربوطة عن علامة التأنيث ، في حين أثبت (ا ت) لجمع (تلميذات) .

يُعْترض عليه أن (ا ت) اللتين تلحقان جمع المؤنث السالم ، بعد تجريد مفرده من (ة) ، ليستا علامة تأنيث بالضرورة ، بل هما صيغة يجمع عليهما المؤنث السالم . والأصل تأنيث المفرد (قياساً على «الوحدة» التي زعم الحياوي أنه استقراها من أحوال التاء) لا تأنيث الجمع . ولأن تأنيث المفرد يغلب على تأنيث الجمع . فإذا كان المفرد السالم مؤنثاً ، فسيكون جمع المؤنث السالم بالضرورة مؤنثا لا بالعلامة ولكن عن طريق كونه مفرداً مؤنثاً قبل الجمع . وشذ عن ذلك : (امرأة) و(شفة) و(ملة) الخ ...

* (ا ت) التي تلحق المفرد المؤنث لتحوله إلى جمع مؤنث سالم قد تلحق المصدر الذي جاوز أكثر من ثلاثة نحو : جهادات ، كساءات ، رهانات ، أو تلحق الاسم المختوم بألف التأنيث مقصورة أو ممدودة نحو : صغريات ، حمراوات الخ ... ناهيك عن السماع .

ونستنتج من ذلك ، أن صيغة الجمع هي الغالبة على صيغة التأنيث . فلو كانت التاء في (التلميذات مهذبات) هي علامة التأنيث والألف هو للجمع لجاز القول (التلميذا مهذبا) لأن علامة التأنيث يمكن حذفها دون أن يتغير الاسم .